صنم التخصص

"التخصص ليس فضيلةً بل هو شر لا بد منه" يقول شرودنغر..التخصص يتعارض مع طبيعة الإنسان المتكاملة، فالإنسان يعشق المعرفة في كافة الاتجاهات، والتخصص يتعارض مع طبيعة العلم التوحيدية إذ لا حدود فاصلة بين مجالات المعرفة بل هي وحدة متكاملة وأي محاولة لإقامة هذه الحدود فإنه ينتج بتراً وإخلالاً بالوحدة العضوية..

يستعمل التخصص سيفاً مسلطاً على الرقاب لإلجام الخصم فإذا أراد أحدهم أن ينتصر عليك في حوار فكري فإن أقصر الطرق نحو ذلك أن يسألك عن تخصصك العلمي فإن علم أنك غير متخصص أفحمك برد مزلزل بأنه حاصل على شهادة في هذا الموضوع مما يعني أن عليك أن تسكت وألا تناقشه لأنه أفهم منك.

قصة المتخصصين تذكر بسلطان الأباريق إذ يحكى أن رجلاً كانت وظيفته في حمام عمومي الإشراف على الأباريق والتأكد من أنها مليئة بالماء فإذا جاء رجل أعطاه أحدها ثم إذا فرغ من استعماله أرجعه إلى مسئول الأباريق الذي يقوم بإعادة ملئه للشخص المقبل، وهكذا..

وفي إحدى المرات جاء رجل فأخذ أحد الأباريق دون استئذان، فصرخ به مسئول الأباريق بقوة وأمره بالعودة إليه، فرجع الرجل فأمره مسئول الأباريق أن يترك الإبريق الذي في يده ويأخذ آخر بجانبه، فلما سأله: لماذا! مع أنه لا فرق بينهما! قال مسئول الأباريق: إذاً ما عملي هنا؟؟.

نفس القصة تتكرر مع المتخصصين خاصةً في كليات الشريعة وأصول الدين فإن كتبت رأياً في مسألة شرعية على بينة بعد أن طالعت وفكرت ابتدرك أحدهم بالقول: أنا متخصص في هذا الميدان وأنت ما علاقتك حتى تتكلم فيه؟؟

يظن هؤلاء أن هناك أسواراً محكمةً قد ضربت حول ميدان تخصصهم فلا يستطيع أحد من الناس الدخول إليها ونسوا أن الإنسان بجهد ذاتي يستطيع أن يهدم كل أسوارهم وأن يتفوق عليهم في مجال تخصصهم بل وأن يبدع فيها..

إن فرص الإبداع من خارج التخصص تتغلب على تلك التي تأتي في إطاره وذلك لأن الذي يقرأ من خارج تخصصه فإنما يقرأ وقد سيطر عليه الشغف والاهتمام لذا تكون لديه قدرة أكبر على الاستيعاب والهضم ورؤية الصورة كاملةً ومن ثم تجاوزها وإضافة الجديد عليها..

يقول المفكر السعودي إبراهيم البليهي:

ليس مفاجئاً أن يكون أكثر الرواد المبدعين أو الأعلى إبداعاً والأشد تأثيراً كانوا من غير حملة الشهادات الجامعية فضلاً عما هو أرفع منها من التخصصات العليا حيث فاز بشرف التأثير الأشد والانتشار الأوسع المبدعون الذين انفضّوا مبكرين من التعليم النظامي واعتمدوا على أنفسهم ولا بد أن يكونوا كذلك فالمنطق يقتضي أنهم الأقدر على التفكير المستقل والأقل خضوعاً للبرمجة والأكثر تحرراً من التدجين

فهذا آينتشاين كان يكره الدراسة النظامية كرهاً شديداً ولم ينجزها إلا بمشقة ومعاناة ومساعدة زملائه لقد واصل الدراسة من دون رغبة بل واصلها اضطراراً وبتأفف وأعلن عن ذلك تكراراً وبوضوح فمواصلته للدراسة جاءت لمسايرة الاتجاهات السائدة وشروط التوظيف وكذلك فعل الرواد الآخرون الذين واصلوا الدراسة النظامية اضطراراً أو خضوعاً للأهل خلافاً لميولهم غير أن إبداعاتهم جاءت في مجالات بعيدة عن المجال الذي درسوه..

كما ينقل البليهي عن الباحث فؤاد شاكر في موسوعته "حصاد القرن العشرين":

«بمناسبة انتهاء القرن العشرين أصدرت مكتبة نيويورك العامة كتاباً يضم أسماء مئة مؤلف اختارتها لجنة من كبار الكتاب والنقاد والأساتذة المتخصصين من بين خمسين مليون مؤلف والكتب المائة التي اختارتها لجنة الانتقاء تتنوع موضوعاتها وكتابها أو مؤلفوها من دول شتى فهي تجمع إبداعات أبناء ثقافات متنوعة وكان المعيار الأساسي في الاختيار مدى انتشار الكتاب وتأثيره على الملايين من جماهير القراء في بلده وخارج موطن مؤلفه أو على الثقافة العالمية والتيارات الفكرية والإبداعية

وقد أسفرت المراجعة والتقييم والفرز والمقارنة الإحصائية عن حقيقة بارزة وهي أن الإبداع لا يكون إلا خارج الأطواق المدرسية والأكاديمية وأن القدرة الإبداعية مرهونة بحظ الإنسان من التفكير المستقل وتجاوز الأطر فمن بين الكُتّاب الذين جرى اعتبارهم الأكثر تأثيراً والأشد انتشاراً الكاتب الإيرلندي جورج برناردشو وهو لم يتجاوز المرحلة الابتدائية في الدراسة النظامية مثله مثل العقاد وغيره من

عمالقة الفكر والأدب.

كما نجد في القائمة نفسها آرثر كوستلر وهو مبدع عالمي ثقف نفسه فلم يلتحق بأية جامعة فأبدع خارج الأطر المدرسية والأكاديمية وقد وجدت لجنة التقييم أن روايته (ظلام في الظهيرة) من أوسع الأعمال الإبداعية انتشاراً في العالم وأشدها تأثيرا على القراء من مختلف الثقافات..

كما اختارت اللجنة رواية (ذهب مع الريح) وهي للمبدعة الأمريكية مارجريت ميتشل وهي أيضاً لم تتجاوز في الدراسة النظامية المرحلة الثانوية إنها من أوسع الأعمال الإبداعية انتشاراً في العالم وقد قرأها أكثر من مئة مليون إنسان في مختلف أقطار الأرض ومن مختلف الثقافات..

ومن بين الأعمال الأكثر انتشاراً والأشد تأِثيراً في العالم خلال القرن العشرين رواية (مئة عام من العزلة) وهي للمبدع الكولمبي جبريل ماركيز الحائز على جائزة نوبل وهو أيضاً لم يتجاوز المرحلة الثانوية في الدراسة النظامية..

كما اختارت اللجنة رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) للمبدع العربي السوداني الطيب صالح والمعروف أن الطيب صالح لا يحمل شهادةً جامعيةً فهو كغيره من الرواد المبدعين قد اعتمد على نفسه في التحصيل فكوّ َن ذاته تكويناً متيناً ونوع مصادر معارفه فأنجز إبداعات رائدة يعرفها المتابعون..

كما أن اللجنة قد توصلت إلى أن رواية (لمن تقرع الأجراس) للمبدع الأمريكي ارنست همينجواي تأتي ضمن المئة كتاب الأوسع انتشاراً والأشد تأثيراً خلال القرن العشرين وقد اختيرت من بين خمسين مليون كتاب من إنتاج ذلك القرن الزاخر بكل ما هو عجيب ورائع ومثير وقد توقف همينجواي عن الدراسة النظامية بعد الثانوية ولكنه مع ذلك بل بسبب ذلك صار هذا المبدع الرائد لأن مواهبه لم تخضع للقسر والتدجين فنال جائزة نوبل وصار الأوسع انتشاراً والأشد تأثيراً بين كُتّاب هذا القرن الحافل بالإبداع..

كما اختيرت رواية (إلى المنارة) للمبدعة البريطانية فيرجينيا وولف لتكون ضمن قائمة المئة كتاب الأوسع انتشاراً في القرن العشرين وهذه المبدعة لم تتجاوز المرحلة الثانوية،،

يتناول كتاب "العلم في منظوره الجديد" لمؤلفيه روبرت أغروس وجورج ستانسيو مشكلة التخصص فيقول: "التخصص الشديد يخلق صعوبات في كافة حقول المعرفة وهو يضيق أفق العقل إذا كان مفصولاً عن فهم أعم"..كما ينقل الكتاب عن عالم الرياضيات موريس كلاين قوله: "إن ثمن التخصص هو العقم وربما تطلب التخصص براعةً فائقةً ولكن قلما يكون ذا معنى"

ويؤكد شرونغر مبدأً يقول "إن المعرفة المعزولة التي تحصلها طائفة من المتخصصين في حقل ضيق لا قيمة لها البتة إلا إذا أدمجت في سائر حقول المعرفة، والمعرفة الناشئة عن الخبرة العامة تتيح أرضيةً مشتركةً يستطيع أن يلتقي عليها جميع المتخصصين في العلوم والفلسفة والفنون. ولو حاول المرء الاستعاضة عن الخبرة العامة بالمعرفة التخصصية كما تقترح النظرة القديمة لتعسر وجود أي سبب للاتصال فيما بين المتخصصين أو بين المتخصص وغير المتخصص."

لقد كسر طوفان المعرفة احتكار المتخصصين وصار بإمكان أي أحد يمتلك الشغف والاهتمام أن يقرأ ويتوسع

ويبدع..

وا أعلم..